مقياس منهجية البحث الأدبي: السنة الثالثة أدب عربي

د/ سعاد حميدة

الأفواج(1+2+3)

المحاضرة4: مناهج البحث الأدبي

1_ تاريخ مناهج البحث الأدبي:

أ_ عند الغرب:

في القرن19 سجلت الحياة العقلية في أوربا نهضة رائعة في العلوم الطبيعية والتجريبية ، وأخذت مناهج هذه العلوم تفرض سلطانها على عقول الناس، وتسيطر على تفكيرهم، وراجت تجتذب إليها طائفة من مؤرخي الأدب، أخذوا ينادون بمحاولة تطبيق هذه المناهج على الدراسات الأدبية، وإخضاعها لأساليبها وقواعدها وقوانينها العلمية، وارتفعت ثلاث صيحات تدعو إلى هذه المحاولة أو التجربة الجديدة:

*** صيحة سانت بيف(1804_1869):** تدعو إلى تطبيق علم النبات على تاريخ الأدب وإخضاع دراسته لمناهجه العلمية، واصطناع أساليب علمائه حين يصنفون أنواع النبات المختلفة في فصائل متميزة تتشابه كل فصيلة منها في الدراسات الأدبية، عن طريق دراسة شخصيات الأدباء من شتى جوانبها، لمعرفة الخصائص التي ينفرد بها كل منهم دون سواه، والصفات التي يشترك فيها مع غيره، وهي معرفة تيسر على الباحث تصنيف هؤلاء الأدباء في مجموعات متجانسة، تشترك كل مجموعة منهم في خصائص وصفات معينة لها_ بعبارة أخرى_ تصنيفهم في مدارس أدبية تتميز كل مدرسة بطابع عام يشترك فيه أفرادها جميعا.

*** صيحة تين(1827_1893)**: تدعو إلى تطبيق مناهج التاريخ الطبيعي وما يقرره علماؤه من تأثير الجنس والزمان والمكان في الكائن الحي، فقد ذهب إلى أن هذه العوامل هي نفسها المؤثرة في الأدب، بل في الفن عامة وأنها هي القوانين الثلاثة التي يخضع لها الأدباء والفنانون خضوعا حتميا لا مفر منه، فكنا ان الإنسان صنع الوراثة والبيئة والزمان، فكذلك الأدب نتاج للجنس والزمان والمكان أكثر منه نتاجا فرديا خالصا، فلكل جنس صفاته البشرية المؤثرة في طباعه وسلوكه وشخصيات أفراده، ولكل زمان ظروفه السياسية والاجتماعية والعقلية التي تطبعه بطوابع معينة، ولكل مكان خصائصه الطبيعية والإقليمية التي تجعل منه بيئة جغرافية مختلفة عن غيرها من البيئات، وهذه العوامل الثلاثة كما تؤثر في الكائنات فتطبعها بطوابعها المميزة تؤثر أيضا في الأدب فتعطيه صفات وخصائص معينة.

*** صيحة برونتيير(1849_1906)**: تدعوا إلى تطبيق نظرية دارون المشهورة في النشوء والارتقاء أو تطور الأنواع، على أساس أن الفنون الأدبية_ كالكائنات الحية_ تخضع لنفس القانون في نشوئها وتطور أشكالها

وأنها_ مثلها_ يتولد بعضها من بعض، ووضع برونتيير نظريته الجديدة في تطور الأشكال الأدبية، ومضى يطبقها على ثلاثة من فنون الأدب الفرنسي في عصره(المسرح والشعر الغنائي والنقد الأدبي)، فتتبع طريق نشأتها وتطورها، وانتهى إلى أنها تمضي في نفس الطريق الذي تمضي فيه الكائنات الحية، خاضعة لنفس القانون الذي تخضع له هذه الكائنات، في نشوئها وارتقائها وتطور أنواعها بعضها من بعض، فالشعر الغنائي _ مثلا_ الذي عرفته الحركة الرومانسية في فرنسا في القرن19م لم يتطور عن شعر غنائي مثله، وإنما تولد من الوعظ الديني الذي كان معروفا في فرنسا في القرن17م).

ولكن هذه الصيحات الجديدة لم تلبث أن هدأت مع مطالع القرن20، تحت تأثير نمو العلوم الإنسانية وتقدمها، وما ترتب عن ذلك من إدراك علاقات جديدة بين الأدب وهذه العلوم، تقوم مقام العلاقات القديمة التي حاول مؤرخو الأدب في القرن الماضي عقدها بينه وبين العلوم الطبيعية، فقد لاحظ مؤرخو الأدب أنه أقرب إلى العلوم الإنسانية منه إلى العلوم الطبيعية، وأن المنهج الصحيح لدراسته يجب أن يستمد قواعده وقوانينه من هذه العلوم الإنسانية، لا من العلوم الطبيعية، وأنه لهذا يجب أن يتجه إلى الدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية وغيرها من الدراسات الإنسانية، لينتفع بما حققته من تقدم وتطور.

وبدأت تظهر محاولات قوية لدراسة الأدب من وجهة النظر النفسية أو الاجتماعية أو الجمالية أو غيرها، من وجهات النظر المختلفة التي تتجه إليها العلوم الانسانية، وتعددت تبعا لذلك مناهج الدراسة الأدبية، ومضى مؤرخو الأدب يبحثون عن مناهج جديدة يحاولون تطبيقها على دراستهم، وراح كل باحث يصطنع لنفسه منهجا لدراسته من الزاوية التي يريد أن ينظر إلى الأدب منها.

ومن الأمور المقررة في علم مناهج البحث أن المناهج ليست أشياء ثابتة، ولكنها في تغيير مستمر مع تطور العلوم وتجدد مطالبه وحاجاته.

ب_ عند العرب:

لم تكن الفرص التي أتاحها عصر النهضة الأوروبية للأوربيين متاحة للعلماء المسلمين في عصر النهضة العربية، ورغم ذلك قد لاحظ (قون كريمر) أن أعظم نشاط قام به العرب يظهر في حقل المعرفة التجريبية، الذي كانوا يبدون فيه نشاطا واجتهادا عجيبين، حين يلاحظون ويمحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد، لذلك نلاحظ أن أسلوبهم في البحث يصل إلى أعلى مستوياته العلمية في نطاق الرواية والوصف، الأمر الذي جعل التاريخ والجغرافيا يحتلان في أدبهم المقام الأول، وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة وبصفتهم مفكرين مبدعين، فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة في حقلي

الرياضيات والفلك، وللسبب ذاته نجحوا في التشريع وفي وضع قواعد اللغة من صرف ونحو في شكل شامل محكم».

العرب في عصر نهضتهم العلمية لم يكونوا في غفلة عن فكرة مناهج البحث، ولم تكن علومهم قائمة على غير أساس منهجي، فقد استطاعوا أن يحققوا لهذه العلوم قدرا كبيرا من منهجية البحث، وأن يصلوا بها إلى مستوى علمي رفيع، غاية ما في الأمر أنهم لم يصلوا فلسفة شاملة لهذه العلوم تكون أساسا صالحا لظهور علم نظري مجرد يقف وراءها جميعا، وينظر إليها من حيث هي وحدة عقلية متكاملة كعلم مناهج البحث الذي وصل إليه العلماء في عصر النهضة الأوروبية.

موقف العرب في مجال البحث الأدبي: ما طبيعة الدور الذي قام به الباحثون في الأدب لتأصيل مناهج للبحث الأدبي؟، الحقيقة أن فكرة المنهج في هذا المجال لم تكن واضحة في أذهان أصحابه، كما كانت واضحة في المجالات العلمية الأخرى، والسبب في ذلك يرجع إلى أنهم لم يصلوا_ على الرغم من كل ما قاموا من جهود رائعة_ إلى فكرة البحث الأدبي، وإنما كان موقفهم من الأدب هو نفس موقفهم من التاريخ، فقد نظروا إليه من نفس الزاوية التي نظروا منها إلى التاريخ على أنه مجموعة من الأخبار والروايات تتابع في شكل سردي قصصي، منسوبة أحيانا إلى أصحابها من الرواة والإخباريين، وغير منسوبة أحيانا أخرى.

ومن هنا اتجهت كتبهم الأدبية اتجاها إخباريا يقوم على أساس من نظرة جزئية غير شاملة، دون محاولة لجعل هذه الأخبار تأخذ شكل دراسة منظمة قائمة على أسس منهجية محددة، حيث لم تعرف المكتبة العربية القديمة كتابا في البحث الأدبي أو في تاريخ الأدب العربي.

ولكن يمكن أن نجد في بعض الكتب أفكارا منهجية تصلح أن تكون بداية طيبة على طريق مناهج البحث الأدبي(مثل فكرة توثيق النصوص، وفكرة الإسناد في الرواية الأدبية)، وكلتا الفكرتين تصدر عن أصل واحد وهو قضية الانتحال في الشعر القديم، ومما يلفت النظر بقوة أن الموقف هنا يتشابه مع الموقف من قضية الوضع في الحديث النبوي الشريف، التي كان من آثارها ظهور علم الحديث، ولو أخذ أصحاب الشعر القديم قضية الانتحال مأخذا جادا لكان من المحتمل غلى حد بعيد ان يظهر في تاريخ الثقافة الإسلامية علم جديد هو (علم أصول الأدب)، ولأتاح لنا ذلك فرصة القول بأن الباحثين القدماء في الأدب العربي وصلوا إلى فكرة مناهج البحث الأدبي، ولكن هؤلاء الباحثين أخذوا المسألة مأخذا سهلا هينا.

وبعدما وصلت إليه مدرستا البصرة والكوفة من اختلافات واتهامات فيما يخص قضية الانتحال في الشعر الجاهلي، وضع ابن سلام الجمحي في كتابه(طبقات الشعراء)، أصولا دقيقة محكمة لتوثيق الشعر الجاهلي_ بعبارة أخرى_ وضع منهجا علميا سليما لهذا التوثيق، ولكنه لم يقف به في الدائرة النظرية، وإنما حاول أن ينتفع به ويطبقه تطبيقا عمليا في تراجمه للشعراء الجاهليين.

والواقع أن كتاب بن سلام الجمحي يمثل محاولة قوية لتأصيل منهج أدبي قائم على أسس واضحة محددة وأننا لا نتردد في أن ننظر إليه على أنه دراسة منهجية للأدب العربي، ذلك أنه قسم كتابه منهجيا على أساس

الزمان والمكان ثم الغرض، والظاهر أنه حاول أن يحقق من ورائها منهجا متكاملا لكتابه يهدف بصورة واضحة إلى تصنيف هؤلاء الشعراء في مجموعات متجانسة، وهي محاولة منهجية تذكرنا بما دعا إليه سانت بيف(ق19) من تطبيق مناهج علماء النبات على دراسة الأدب على أساس تصنيف الأدباء في مجموعات مشتركة في جملة من الخصائص.

أهم مناهج البحث الأدبي من القديم إلى الحديث:

ما دمنا قد سبقنا بباحثين وضعوا الأسس والقواعد لمناهج متعددة، بعد أن خاضوا تجارب عقلية وعلمية عميقة، وسجلوا نتائج هذه التجارب للأجيال القادمة بعدهم، فلا مناص لنا من الإلمام بهذه المناهج.

ومنذ فجر التاريخ ومع توالي الحضارات والثقافات الإنسانية، وضع الفلاسفة والعلماء وأهل البحث والنظر في العلوم والفنون مشاعل مضيئة، وعلامات وإشارات على طريق البحث.

ومن المسلم به أن السابقين قد وضعوا اللبنات الاولى في مسرح العلم والمعرفة، فنادى بعض نقاد الغرب في مطالع هذا القرن إلى إبعاد البحوث الأدبية عن المناهج والقوانين البحثية وعدم إخضاعها لأي منها والاكتفاء في التعامل مع الأدب وفنونه بالتذوق الخاص، والانطباعات الذاتية(الذاتية التأثرية) والنظرات الشخصية، وهذه مغالاة منهم وبعد عن المحجّة، لأن الأدب جزء من الحياة، والحياة بكل ما فيها من زمان ومكان وانسان ذي نفس وعقل وفكر وعاطفة وكائنات يتعامل معها البشر ويتفاعلون، الحياة بهذا كله(موضوعية) تسير بقوانين ثابتة وضعها خالقها عز وجل، كانت وستظل موضع تفكيرنا ودهشتنا ومحاولاتنا فهمها وادراك اسرارها واكتشاف حكمتها البالغة، ولا مناص لمعشر الباحثين من التعامل في بحوثنا الأدبية مع هذه العوامل الموضوعية، ولا عجب ان تتعدد المناهج تبعا لزوايا الفكر والنظر، والاعتماد على النظرة الشخصية للأديب والانطباع الذاتي قد يقود الباحث إلى الحكم بالهوى وهو مفسد للبحث، وإلى الإعجاب بالرأي وهو مدعاة للخطأ والضلال حيث لا منهج ولا مقياس وهذه لمحة عن أهم المناهج في البحث الأدبي:

1_ المنهج العقلي(المنطقي):

واضعه هو الفيلسوف الإغريقي القديم(أرسطو طاليس)، ولذلك يعرف بالمنهج الأرسطي، حيث الاستدلال عنده يتألف من قضايا تتكون منها مقدمات(القياس)، بحيث اذا كانت المقدمات صحيحة أدت إلى نتائج صحيحة، وإذا كانت المقدمات فاسدة أدت الى نتائج فاسدة، وقد لعب هذا المنهج دورا كبيرا في البحوث العلمية بعد أرسطو عند كثير من الأمم التي اطلعت على الثقافة اليونانية، ومنها الأمة العربية، ثم الأمم الأوروبية، إلا أن العرب مع استفادتهم من هذا المنهج، كانت لهم من أول الأمر شخصيتهم العلمية المستقلة فاستدركوا عليه وعدّلوا فيه وأضافوا ما رأوه حقان وانفردوا بمبتكراتهم ونظرياتهم التي ميّزتهم، ففي جانب الإفادة أقرّوا منهج القياس، فظهر في علومهم الكثيرة، ومنها العلوم الشرعية(الفقه) والعلوم اللغوية(كالنحو)، بخلاف الأوربيين الذين قدّسوا المنهج الأرسطي قرونا متطاولة، قبل أن ينقلبوا عليه ويبعدوه تماما عن مناهج البحث في العلوم والفنون.

2_ المنهج الاستقرائي التجريبي:

لما رأى العرب أن الافضل في القياس هو (الانتقال من الجزئيات الى الكليات العامة)، خلافا لأرسطو حتى يكون القياس سديدا، فقام هذا المنهج على قاعدتين أساسيتين هما: _ الاستقراء _ الملاحظة والتجربة، وبهما نهضت العلوم العربية النظرية والعملية نهضة عظيمة منذ القرن2هـ والقرن3 هـ، وكان من العلوم التي أخذ فيها بقاعدة(الاستقراء) علم استنباط الأحكام من الأصول(أصول الفقه) وعلوم النحو والتصريف وأصول اللغة والمعاجم.

وقد نادى مفكر الأوربيين مثل(روجر بيكون في القرن13م) بضرورة الاستقراء في العلوم، وكذلك بالملاحظة والتجربة، وهما الأساسان اللذان وضعهما المسلمون لعلومهم، وجاء(فرنسيس بيكون) ليؤسس(المنطق الحديث) على أساس استبعاد المنطق الأرسطي(ق17م)ن وتبنى المنهج العلمي العربي، وجاء المفكر الفرنسي(ديكارت) في منتصف هذا القرن المشار غليه لينادي كما نادى المفكرون المسلمون بتحليل المشكلات العلمية إلى(جزئيات بسيطة) حتى يمكن حلّها على خير وجهن وبالاعتماد على نظرية الاستقراء والإحصاء ودراسة الظواهر ورصدها، مع الجمع بين التفكير النظري والتجربة كلما أمكن ذلك.

يقول الدكتور(إبراهيم مذكور)«عنيت الفلسفة الإسلامية بالبحث العلمي، ووضعت أساس المنهج التجريبي، وغذّت الحركة العلمية في جامعات أوربا إبان(ق13م)»، وقد طبّق على أيدي اعظم الباحثين في تاريخ الإسلام، بل وفي تاريخ البشرية في شتى العلوم من شرعية ولغوية وأدبية واجتماعية وطبيعية وكونية من عمالقة العلم وعباقرة الفكر، يقول الدكتور(شوقي ضيف)« ومن أهم البحوث العلمية التي توضح مدى أخذ العرب بالاستقراء(علم النحو)، فقد قام على الاعتماد اعتمادا تاما على السماع، سماع القرآن الكريم في لغته المثلى والسماع عن البدو الخلّص الذين يوثق في فصاحتهم(من أهل الحجاز ونجد وتهامة) وجعلوا ذلك أساسا لا ينقض لقواعده، فلابد في كل قاعدة من استقراء واسع تعتمد القاعدة عليه وهي لا تبنى إلا على الأعم الأكثر، ومثلها(القياس) على شاذ، ولا على ما ورد في ضرورة الشعر، وإنما يقاس على الكثرة الغالبة من الاستقراء الدقيق»،

وكمثال عن أعظم الباحثين في الشعبة اللغوية من العلوم العربية منذ ق2هـ(الخليل بن أحمد)،الذي استقرأ أشعار العرب الذين يحتجّ بشعرهم ليفنن بحور الشعر العربي ويحصر أوزانه الموسيقية في جهد علمي فريد من نوعه.

3_ المنهج الطبيعي:

وهو المنهج الذي تحدثنا عنه سابقا، حيث ظهر في مطلع القرن19م بعد نهضة العلوم الطبيعية في أوربا حيث ظهر لدى الأوربيين منهج في البحوث الأدبية تأثر بهذه العلوم، تزعمه المفكرين(سانت بيف _تين

_برونتيير)، وحاولوا فيه وضع قوانين ثابتة للبحث الأدبي، خلاصتها أن الأديب ليس كيانا مستقلا ،بل هو ابن بيئته وعصره وجنسه، بالإضافة إلى الأحداث التي مرّت به في حياته، فهو ثمرة من عوامل أد{ت إلى تكوينه جسميا وعقليا وعاطفيا، وهو يصدر عنها صدورا(حتميا جبريا)، فينبغي في نظرهم أن يدرس الأديب من كل الجهات ثم يستبعد الفردي فيه، ويؤخذ الجماعي، ليوضع في مكانه الصحيح من الأسرة والفصيلة الأدبية فما الأدباء في رأيهم إلا فصائل كفصائل الحيوان والنبات، كما حاول ثالثهم وهو(تين) ربط هذا المنهج بنظرية النشور والارتقاء لداروين، المتعلقة بتطور الكائنات الحية عن بعضها البعض حسب تفسيره.

وقد اعترض كثير من النقاد من أوربيين وغيرهم على هذا المنهج الطبيعي، وفنّده الدكتور(شوقي ضيف) في تطبيق قواعد الدراسات الطبيعية في(الحيوان والنبات) على الإنسان تعسّفا ظاهرا وإغفالا غير مقبول لما ميّز الله بيه الإنسان عبى سائر الكائنات من عقل واختيار وتفرّد، وإذا كانت هناك خصائص مشتركة بين مجموعة من الأدباء فذلك يجمع أصحاب هذه المجموعة في مدرسة أدبية معينة، ولكنه لا ينفي انفراد كل منهم بذاته وتميزه عن الأخرين،

4_ المنهج الفني:

ويرتكز البحث فيه على قواعد العلوم اللغوية(من نحو وتصريف) وعلى علوم البلاغة، ولا يغفل أسس علمي العروض والقافية بالنسبة للشعر كذلك، ويهتم بالصياغة الأدبية وعناصرها وأسرار جمالها في الكلمات والأساليب، ما يعتمد على كثرة الرواية للشعر والإحاطة بفنون الأدب وبفهم الأقدمين لها وتصورهم إياها ويوازن بين النصوص الأدبية ويقارن بين الأدباء واتجاهاتهم وطابع كل منهم في الاغراض المختلفة، وفي المعاني والأساليب، ويكشف عن أخذ لاحقيهم من سابقيهم، ويبين أوجه تقصيرهم أو إحسانهم وهذا هو المنهج الغالب على البحث الأدبي العربي القديم، وبخاصة البحوث النقدية من اعلامه القدماء(الجاحظ_ المبرد_ الآمدي_ الجرجاني_ أبو هلال العسكري_ ابن رشيق القيرواني_ الخفاجي.....)، وقد تأثر بهذا المنهج في العصر كثير من الباحثين والأدباء،

5_ المنهج النفسي:

ويعتمد البحث فيه على الدراسات النفسية، التي تبحث عن الصلة بين النص الأدبي وبين الحالة النفسية التي دفعت الأديب لإخراجه وتحديد نوعيتها ومدى حراراتها وصدقها أو زيفها، ويعنى هذا المنهج كذلك بدراسة حياة الأديب وتكوينه النفسي والعاطفين وكل ما يتصل بحياته الخاصة، وما مرّ به من أحداث سارة أو مؤلمة وبيان أثر كل ذلك في أدبه، فإن فهم نفسية الشاعر مثلا من الداخل خير معوان وأقوى ضوء يوجّه إلى نتاجه فيكشف عن أسراره وأبعاده الحقيقية ويفسّر ما فيه من رموز، ونقاد العصر الحديث أميل إلى هذا المنهج في أبحاثهم ومنهم العقاد والمازني وطه حسين.

6_ النهج التاريخي:

وهذا المنهج مكمل للمنهج النفسي، ويعتمد_ إلى جانب دراسة حياة الأديب الخاصة_ على دراسة حياته العامة وتاريخ عصره وبيئته، فيربط بين الاديب وبين احداث العصر ومشكلات البيئة، يبيّن موقفه من تلك الأحداث وهذه المشكلات.

وهو حين يدرس العصر والبيئة اللذين عاش الشاعر في ظلهما يحاول تغطية كل جوانبهما السياسية والدينية والثقافية والطبيعية، وينظر مدى انطباع الشاعر أو الكاتب بطابعهما وتفاعله معهما تأثّرا وتأثيرا، وأي التيارات التي سادتها كان أشدّ جذبا له وأظهر في أدبه.

والصلة بين هذا المنهج وبين البحث الأدبي قوية لأن التاريخ إطار للأدب، والأدب من مكونات التاريخ كلاهما يخدم الآخر ويكمل ما قد يوجد فيه من نقص، ويسدّ الفجوات ويوضّح كثيرا من خفاياه وأسراره وهو منهج عظيم الفائدة في تصنيف الأجناس الأدبية وتتبّع تطوّرها على مرّ العصور وفي مختلف البيئات، والاتجاه إلى هذا المنهج قدر مشترك بين النقاد لقدامى والمحدثين.

7_ المنهج التكاملي:

وينبغي لنا بعد هذا العرض الموجز لأهم مناهج البحث، أن ننبّه إلى أن منهجا واحدا من هذه المناهج، قد يغلب على الباحث، ولا بأس بذلك، لكنه لا يكفي أن يستقلّ منفردا عن المناهج الأخرى، والواجب الاستعانة بهذه المناهج كلّها في النظر إلى الآثار الأدبية وبحثها ونقدها، لتكون النظرة أشمل وأكمل وأعظم أبعادا، ففي كل منها مزية لا يستغني عنها الباحث، ليكون بحثه وافيا وحينئذ يكون المنهج الأمثل هو المنهج التكاملي، الذي نادى به نقاد العصر الحديث.

ويجب الإشارة إلى أن البحث الأدبي مرتبط في عمومه بمناهج بحث، هي المناهج التي ذكرناها سابقا، ولكن عند تحليل نصوصه ونقدها فمرتبط بمناهج تحليل حديثة ومعاصرة وهي المناهج المعرفة منها (البنيوي_ الأسلوبي_ السيميائي_ منهج النقد الثقافي_ الموضوعاتي_منهج النقد الأسطوري_ التفكيكي.....). وهي مناهج نقدية.